بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

حين جزت بلد أبي العلاء منذ خمسة عشر عاماً ، قلت لركبي — على ميعة الصبا — وقوفاً بي على الشاعر الأعظم ، ومهلا أطأطىء رأسي أمام ضريحه وأقرأ لروحه فاتحة الكتاب . تركتهم بباب المعرة تلاعبهم الرياح فى هجمة ربيع ، ومررت بالقصارين فسألت سوقهم أين يكون مرقد الشيخ . فدلوني على بيته بعد الساباط . فأتيته ، وصرت إلى شاعري ، وجثوت عند قدميه .

وجدت أبا العلاء زاهداً حتى فى موته . كان قبره بيد العفاء . وملأ سمعي قبيل الظهيرة صبيان فى كتابهم كانوا على مقربة منه يرتلون مع معلمهم آى الذكر الحكيم . كذلك كانت سور القرآن لا تفارق سمع أبي العلاء وهو رميم فى ثراه .

وملأت صدري نسيما عليلا من هواء المعرة وأنا أعود إلى صحبي ، وسألت نفسي أين كان « وادي النسيم » ذاك الذي رق هواؤه وطاب ماؤه أيام أبي العلاء فكان يحوز فيه وينشد شعره عند أجارعه فى الغزل الأول « بأمامة » فتموج المعرة لنسيبه قبل أن تموج دنيا العرب بحكمته وشعره .

حدثني راو حكم بلد أبي العلاء أن رئياً كان يعرض لامرىء من أشياخ المعرة إذا هدأ الناس وتصرم قطع من الليل . فكان يرى فتاة سابية حسناء ملفوفة بغلالة بيضاء ، تعمها هالة من نور تمضي فى مسارب المعرة . كأنما تمشي مشياً رقيقا وئيداً ولا تكاد تمس الأرض قدماها . كانت إذا سكنت كل نأمة فى الحي تخطر بقدها المياس ، وغلالتها الساحرة تميل على جانبيها ، فتأخذ طريقها فى صمت وهدوء إلى بيت أبي العلاء ، وهنالك تطرق عليه الباب وتخطو إلى الفناء ثم تغيب فى الضريح .

قلت لعمري تلك « أمامة » غانية أبي العلاء بقيت روحها بعده شريدة .

إنه هو الذى شرذها فى آفاق زهده ، وهو الذى قضى عليها أن تظل بعده بتولا حتى ينهض من قبره .

كذلك أحببت أبا علاء — على ريث العمر فأخذت بكتبه مدارسة وممارسة وخطوت الشباب فإذا أنا بضفاف النيل أكتب عن شاعرى . ولئن سبقنى الكتاب على كثرتهم فى التصنيف عنه لداعية ألف عام مرت على مولده ؛ فما واحد منهم وقف كتاباً على نقده للمجتمع . وهل كان أبو العلاء الا ناقد المجتمع فى كل شعره وعميم نثره . لقد عرضوه فيلسوفاً وجلوه شاعراً ولكن لم يظهروه ناقداً . فلا علىّ إذا جئت بعدهم أوفى صاحبى حقه منى ، وأنا ابن سورية التى أطلعته ، وله على مثلى حق التأليف . وإن ابن الجلدة والأرض لأجدر بمواطن الدرس وأقرب لنبضات الشعور . ولقد أدلى القوم بالدلاء فلا أقل من سجل أرمى به فى الماء ، فرب ظمآن بله ماؤه .

فإليك السلام أبا العلاء ، لقد اغتربت مثلك للعلم . إنك كنت بضفاف دجلة تحن إلى قطرة من ماء المعرة ، وأنا بضفاف النيل أحن إلى جرعة من بردى . ولو جئت مصر اليوم لأنستك روعة بغداد ، فلم تلق فيها الحساد ، فإن مصر تحبك ، ولو رجعت إلى عصرنا حقاً لدهشت لمن كتب عنك فيه فكاثر بك عباقرة الأمم . وقد صانتك حكومة الشام فهدت أرضك وبعثت مجدك ، وحدبت عليك مصر فنشرت أسفارك وجمعت أخبارك .

لقد نقدت الدنيا وسكانها ، والأكوان ودورانها ، ففندت الجماعات ، ونقرت فى العادات ، ولم ينج من صيب نقدك رجل ولانجت إمرأة . لقد نقدت الأقيال والأمراء ، والأغنياء والفقراء ، وعرضت شمائل الأوساط وصورت أخلاق الصعاليك .

فيا أيها الكوكب الذى لمع فى سماء بلادى فغمر الأرض بنوره فداك كل طرف ناظر . أبداً تبقى مياسمك خالدة ، لأن نقدك المجتمع يصلح لكل زمان ، وينزل فى كل مكان

القاهرة ١٣٦٦ / ١٩٤٧

زكى المحاسنى

التوطئـــــــة

١ — فن النقد ومهمة الناقد

النقد فن التقويم ، به يُعرض على التمييز كل ما تقع عليه العين ، ويسقط فى السمع ، وتلم به الأحاسيس وتدركه العقول ، وقد عرفه الإنسان الألمعى البصير .

وإذ كان التعميم والتبعيض يعتريان النقد فقد صح أن يتناول النقد نواحى منفردة من آثار الحياة فى الثقافة والإبداع ، أو أموراً مجتمعة فى مظاهر الجماعات ، فكان نقد الأدب واقعاً على منتوج القرائح وثمار البيان فى المنظوم والمنثور ، وكان نقد سائر الفنون معنياً بأنواعها من موسيقا وغناء ونحت وما إليها . وقد بدا نقد العلوم وأنواع المعارف الباقية متصلا بإظهار نقصها وتمامها ، وخطئها وصوابها . وكان نقد الجماعة متناولا آثار أفرادها فى مرافقهم ومعايشهم وميولهم وأعمالهم وما تبدع أفكارهم وتصنع أيديهم وما يكون بينهم من مظاهر الاجتماع فى أشتات صفاته ، وعديد أشكاله .

إن الكائن الجميل مَرادُ الناقدين ، ولذا فقد قاسوا عليه أضرابه وأشباهه ، وأبانوا به معاييرها ، فتوجهَ النقد بذلك إلى نِشدان الكمال ، والتماس المثل العليا ، وأصبح هو الرقيب الذى يروز بميزانه الأمور ، ويمحص بأحكامه الأشياء فيفرق بين الجيد والدون .

يخشى الضعاف مياسمه الكاوية ، فيتربصون الشر بصاحبه ، وقديماً اصطلحت على الناقد عداوات الناس ، لأن الاعتراف بالعيب والتقصير نقيصة ما تزال عالقة فى سجايا الإنسان . فما يكاد الناقد يظهر للمنقود مثلبة من مثالبه حتى يستشرى هذا ويثور ، أو يضطغن ويكيد . وقد يخيل إلى المنقود أن مجده قد هوى من ذراه ، وأن الكمال له وحده ، وأنْ ليس للنقص إليه

من سبيل . وتنشب الخصومة بينه وبين الناقد حتى تصير عداوة لا يمحوها كر السنين

عرف العرب الجاهليون النقد على سذاجته وبداءته ، فلم يكن عندهم فنًّا يحتذى . كانوا إذا أعجبوا ببيت لشاعر قالوا هو أشعر الناس ، وكثر فى أخبار أدبهم هذا الضرب من النقد ، يجودون به إذا أنشد بعضهم بعضاً طرَفاً من الفرائد ، وأفضت بهم الأسمار ، إلى مطارحة الأخبار ، ورواية الأشعار كالذى كان من عمر بن الخطاب « لما خرج ليلة يمشى ويده على كتف ابن عباس ، فقال أنشدنى لأشعر شعرائكم . قال له ابن عباس ، ومن هو »[1] فأعلمه عمر أنه زهير بن أبى سلمى لأنه لا يعاظل بين البيتين ولا يتبع حوشىّ الكلام ولا يمدح الرجل إلا بما فيه . ويمضى هذا الضرب من النقد فى حياة الأدب العربى القديم ، ينفرج تارة ويضيق أخرى حتى يكون العصر العباسى فيظهر النقد فى شكل نظم وقواعد ، ويكون للجاحظ طريقة فيه وعناية بموازين بيانية يزن بها فى كتابه (البيان والتبيين) . ثم ينطلق النقد فيحتل علوم البلاغة . ويجرى على مقاييس بدأت كأول الغيث ثم انهملت . فإذا أبو هلال العسكرى فى الصناعتين نظار نقار يصنف طرائق النقد ، وابن رشيق يؤلف فى صناعة الشعر ونقده . وإذا قدامة بن جعفر ينقد النثر فى كتابه فيحدث فى النقد حدَثاً يختط فنونه ويسمى أسماءه ، ويجعل نفسه أول من يسن هذه السنّة فى الأدب ، إذ كان يرى الجاحظ فى كتابه « البيان » مخطئاً فى تسميته ولذا فقد سمى هو كتابه (نقد النثر وكتاب البيان) فقال[2] : « فإنى لما كنت فى معنى لم يسبق إليه من يضع لمعانيه وفنونه المنبسطة أسماء تدل عليها احتجت أن أضع لما يظهر من ذلك أسماء اخترعتها » وقد ذكر فى خطبة كتابه هذه عيوب النقد لدى الجاحظ وأنه لا يصلح لشرح البيان ونقده فقال

---

(١) رسائل أبى العلاء . الطبعة الأدبية بيروت ١٨٩٤ ص (١٣٩) .

(٢) نقد النثر لقدامة . طبعة مصر ١٩٣٨ . خطبة الكتاب .

وهو يريد الجاحظ وكتابه : « لم يأت فيه بوصف البيان ولا أتى على أقسامه فى هذا اللسان وكان عند ما وقفت عليه غير مستحق لهذا الذى نسب إليه » .

وقد انحرف قدامة بن جعفر فى كتابه إلى أساليب البيان فيما يتعلق بالمعانى والمبانى ولم يقف عند قواعد النقد على مصطلح علمه الحديث .

ونبغ فى العربية شعراء انقسم الناس من حولهم بين معجب وثالب ، ومادح وقادح ، ولئن كانوا فى أيام بنى أمية قد اقتصروا فى مجالس أدبهم على الميل إلى شاعر دون آخر فهم فى أيام العباسيين قد ألفوا فى ذلك الكتب وصنفوا الرسالات . فهذا الآمدى يضع الموازنة بين البحترى وأبى تمام ويمضى فيها على قواعد من النقد ، حتى إذا ظهر أبو الطيب المتنبى فى نطاق عائبيه ومحبيه ، فملأ الدنيا وشغل الناس ، لاث القاضى الجرجانى عمامة الحكم على رأسه وتوسط بين المتنبى وخصومه ، فكان بكتابه هو الضارب لأحسن أمثلة النقد العربى فى الأدب إلى أيامه .

ثم اتسعت آفاق هذا الفن فى ثقافات الأمة العربية فتناول بقواعده مختلف العلوم . وصُنفت فيه طبقات العلماء والنحاة والمحدثين . حتى إذا بلغت العربية هذا الزمن الحاضر تفتحت بهذا الفن الأذهان على قواعد أشد أحكاماً ، وأقوم سبيلا ، ومضت فيه على غرار الآداب الغربية ، فقد عرفته الأمم الغربية فى آدابها وحياتها فى مقولات الفلاسفة اليونان ، ثم نما واشتد حتى ذهبت فيه المذاهب . وكان له الفضل العميم فى تبيان المحاسن وتقويم الزلل ، فغذته المجامع العلمية والندوات الأدبية منذ أنشئت فى ديار الغرب . ولم يخل أديب أو مؤرخ من أن يُنال به أو أن يتناول منه قسطاً ، حتى أتى فيه على الغربيين حين من الدهر فصار يتمنى صغار الكتاب كبارهم أن ينقدوهم ليشيع ذكرهم ويعظم شأنهم ويطير لهم صيت ، وقد اتفق لتاريخ الأدب العربى مثل ذلك كالذى فعل بشار عند ما هجا الأخطل وقال لو ردّ علىّ لكنت أشعر الناس

لقد كان فى هجمة الآداب العالمية قبيل هذه الحرب من إشادة النقد بآثار الأدب والعلم ما صارت معه قيمة الأديب أو العالم فى الغرب مقرونة بإقبال النقد على آثاره . فأى أثر لم يتداوله النقاد بأقلامهم مشرحين ومحللين كتب له الكساد . فصارت عندهم نباهة الأثر باعتناء النقد به وإقبال الناقدين عليه حتى أسست للنقد فى أمصارهم ندوات وجمعيات ، وأنشئت صحف ونشرات ، وأصبح للصحف منشئون للنقد خاصة .

هبت فى الغرب رياح النقد ، وراجت سوقه حتى حسبتها كسوق الصيارفة فيما يتداولون من الدراهم والدنانير . وللصيارف فى لسان العرب نقد الدراهم وتمييزها لمعرفة جيدها ونفى زَيفها[1] .

يقول « هنرى بيدو[2] » ، وهو من كبار النقاد المعاصرين فى فرنسة : « كان لفن النقد حفاوة فى أوربة منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وكان كل ناقد يتبع منهجاً يختطه لنقده ، فكان « سنت بوف » يُعنى بدراسة الأشخاص مع آثارهم فعد بذلك أكبر نقاد العصر الفائت . وأطل على الأدب المعاصر فى فرانسة (برونتيير) و (پول سودى) بنقدهما الفلسفى الجدلى . وتوفر (إميل فاغيه) على أدب الردحة كلها فألم بأوجه النثر والشعر منذ نهضة الأدب الفرنسى حتى أيامه . واشترع (لانسون) للنثر شرعة فى فن النقد . ومضى (إيدمون جالو) معتنقا فى النقد مذهب الجمال وعلم النفس . ولقد كان النقاد الكلاسيكيون يتخذون الجمال مقياساً فى النقد ، فلما هب الإبداعيون بأدبهم وقالوا إن الجمال نسبي خفت موازين النقد المدرسى .

وتدرج فن النقد على يد (تين) فخرج من نقد الأسفار (إلى الجماعة) . فقد عنى هذا الناقد بحياة المنقود وبيئته التى عاش فيها ودمه الذى يسرى فى عروقه . ومتى وسمنا بمذهبه هذا ، الآثار والأشخاص ، بان لنا صواب طريقته

---

(١) المصباح واللسان .

(٢) المعلمة الفرنسية لأبراهام الجزء السابع عشر قسم (C) تجد كلام (هرى بيدو) على النقد الحديث فى فرانسة .

فى تحليل الأعراق ودراسة الجماعة وفترة الزمن التى عاش فيها الأديب » .
على نحو ما سأمضى فى هذه الرسالة فى دراسة المعرى وعصره وجماعته مظهراً مياسم نقده للمجتمع وأسباب هذا النقد ونوازعه وألوانه .

أما هموم النقد وتكاليفه فعبء ثقيل لا يضطلع به إلا الأقرام الأشداء من العلماء الذين انبسطت آفاق وعيهم وإدراكهم وأعدوا للنقد ما استطاعوا من عدة ، وخلت نفوسهم من النحيزة ، وصفت عقولهم للتسديد وقلوبهم للإصلاح . ومن لك بالحر الذى ينقد الأمور وهو سليم الطوية ، مجرد من الدخائل والأهواء .

لقد نظر فن النقد إلى نوازع النفوس الناقدة ، وعرف قلوب الناقدين فنشد النزاهة والنباهة فى الناقد . والمرء لا يستطيع أن ينقد الأثر وصاحبه ، والجماعة وبيئاتها إلا إذا كان متجرداً من ميول نفسه . فكيف يستطيع ناقد أن يظهر حقيقة المنقود عارية من الزيغ والضلال ، ومنزهة عن الغرض والتحامل . فكان من أخلاق الناقد التجرد ، بين يدى النقد ، عن كل مايحول دون صحة الرأى وسداده فيه .

لقد استهزأ المجادلون بهذا المذهب الصوفى فى النقد ، والحق أننا نحن البشر طيور سجينة فى أقفاص ميولنا ونزعاتنا . فمنذا الذى يستطيع أن يخرج من إهاب جسمه روحاً صافية نزاعة للحكم الأسد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وقد اشتط (أناطول فرانس) فقال[1] : « النقاد الحاذق هو الذى يروى حوادث نفسه فى ظلال الأثر الذى ينقده »

وانقسم بذلك النقد إلى نوعين : النقد الموضوعى ويعنى به فى نقد الآثار موضوعة فى بعد عن نوازع الناقد ، فلا صلة لها بميله وطباعه وتأثر نفسه . وهو نقد منفرد أحسب أنه لن ينهض عليه أدلة ، ولا يكون له حول أو طول لأنه نقد مثالى له قواعد وأصول قد ينفى الأخذ بها ما فى نفس الناقد من فتن

(١) الموضع السابق ص 3-40 17.

الطبائع ووساوس الأفكار . ثم الذى يستطيع أن ينقد الأثر والمؤثر دون أن يمد خسه فى خلال نقده . إن نقد الفيلسوف الزمّيت لعينية عمر بن أبى ربيعة التى وصف بها اجتماعه بهند وصويحباتها ، ونظره فى همزية أبى نواس فى الخمرة ، ليدفعانه إلى الحيدة عن جدد الأحكام فينكب طريق الصواب ويمضى بالتحامل والانتقاص ولا يرى أثر الشاعرين بعين التجرد والبراءة للفن وحده . والنوع الآخر من النقد هو النقد الذاتى ويُقصد به أن يتناول الناقد الأثر المنقود حسب ما يخالجه من الحس نحوه وما يبدو لديه من رأى خاص عملت فيه عوامل الذوق الشخصى وصلات الميل الفنى . فنقد الأديب المسرحى المعاصر للشعر الجاهلى قد يختلف فى ذلك عن نقد الأديب الذى تمرس بهذا الضرب من الشعر القديم وأحبه .

وخير النقد ما كان آخذاً بطرفى المذهبين بقدر مقبول معقول . فلا يهجم الناقد بسلاحه ودروعه على المنقود ، ولا يهيم بحب آثاره فتخفى على عينيه العيوب . وسأبين على صورة هذين المذهبين كيف أخذ أبو العلاء فى نقد المجتمع وأى الاسلوبين فى النقد قد اتبع .

ـ ب — بواعث نقد المجتمع عند المعرى

إن من الأرض طبيعة الأدب . ومن البيئة منازع وصفه . فما يكون أدب فى العراء ، منطلقا من عوامل التأثير ، لا تحتويه أرض غذت أصحابه وزمان أظلهم ومكان قد احتواهم .

لقد أصبحت دراسة الأدب فى أيامنا منوطة بمقاييس علمية . وكان من فضل العلم على الأدب أن اتخذت منه طرائق النقد ، تعلل بها أطوار الأدباء ، وتُسبر بمقاييسها أغوار آدابهم وثقافتهم .

فاطبع من المعرّة أبا العلاء المعرى ، وانظر أكانت نشأته وحياته سبباً فى نقد الجماعة وهل كان زمنه وتجاريبه عاملين على إذكاء هذا النقد فى نفسه وباعثين على تعهده وإثماره .

وصف المعرة أدباء ورحالون فقالوا إنها دار مقامة ، طبيعتها نزهة ، ومنتوجها خير ، وأهلوها فى أمن ورغادة . ونظموا فى وصفها الشعر (١) وافتنوا فى الخبر . ونحسبنا أن نعدو عنهم لأنهم ألموا بها عابرين . ولم ينزلوها مقيمين . فكلام المعرى عليها انقع للغلة ، وأشفى للبحث وصفها المعرى وكشف الستار عن يبس أرضها فى أيامه ، وفقر أهلها ، واحتباس مائها فقال(٢) : « وهذه جمل من صفة المعرة هى ضد ماقاله الله عز وجل مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن . أسمها طيرة ، وعند الله ترجى الخيرة ، المورد بها محتبس ، وظاهر ترابها فى الصيف يبس . ليس لها ماء جار ، ولا تغرس فيها غرائب الأشجار . وإذا أبرز لأهلها ذبح يؤمل به لديهم الربح ، تحسبه صبغ بخطر ، فكأنما يرمق به هلال الفطر . وقد يجيئها وقت يكون فيه جدى المعز كجدى الفرقد ، ومثل حمل الكواكب حمل النقد . ويبكر فقيرها على الهداية قبل أبى الفرخين ابن داية . حتى يقف ببائع الرسل فكأنما وقف برضوان ، يستوهبه ماء الحيوان . فإن سبقه ضياء الفجر فإنه يرجع خائباً ، ولا يجد سهمه صائباً . أما الثابت فإذا أنبذ عند غيرنا بالعبر ، حسب هنا سبائك التبر » .

فكيف تكون المعرة لأبى العلاء مقام خير ونعمى وحالتها مترية ، ودارها مسغبة ، لا ماء فيها ولا شجر ، يهل أهلوها ويفرحون لسخل ينتج ، وحمل يولد يكون عندهم بمنزلة الكوكب فى سحيق السماء . ينالونه بالأنظار ولا يذوقون لحمه . وقبل منبلج الصباح يهب فقراء المعرة فى الغسق إلى بائع اللبن والطيور فى وكناتها ، فإذا أدركهم الصباح ، لم يبلغوا لبناً لنفاده ، ففاتهم الغذاء .

وذكر أهل المعرة فى رسالة « المنيح » إلى أبى القاسم المغربى فوصف جشوم

---

(١) أورد ياقوت الرومى شعرا كثيرا للشعراء الذين زاروا المعرة ووصفوا مباهجها فى الجزء الثالث من معجمة فى ترجمته لأبى العلاء .

(٢) رسائله طبع أكسفورد لمرجليوث ١٨٩٨ ص (٥٥) .

المصائب عليهم وطغيانهم فى الضلال حتى فشل مصلحهم ، وعىّ فصيحهم من هول مايرى[١] فقال : « وقد نزلت بهم خلة من خلال الأشقياء والكفار . وإنما غرقوا فى لج التبانة فصمتوا ، وسمعوا صواعق الإبانة فخفتوا فقلم كاتبهم عود الناكت ، وجواب بليغهم حيرة الساكت »

ثم اتبع فى هذه الرسالة عن أهل المعرة بقوله[٢] : « وهم فى هذا الصقع كأسنان المسارح ، فقد أدمى الخف وطء القف ، وذهب الخارب بذى الغارب » فنبهنا بعد وصفه إياهم بأن جسومهم قد دقت من الوهن والهزل حتى صارت كأسنان المشط وبلغ بهم الفقر أن ساروا حفاة بغير نعال فدميت أقدامهم من وطء الرمال . وذكر الفتن والقلاقل ، فكان هذا سبباً آخر زاد فى نزعته لنقد المجتمع ، إذ كانت المعرة دار قلاقل وفتن فى عهده . كما سآتى على ذكره فى الحياة السياسية زمن أبى العلاء فى المعرة — فقد وصفها أبو العلاء وهى فى أيدى الاضطراب فى رسالته إلى عبد السلام البصرى عندما كان به شوق إلى العراق يتمنى لو كانت ثمة داره فقال[٣] : « ومستقرى معرة النعمان ، والفتنة عندنا صماء ، طعان بالمران ورماء ، إنما يجىء الصيف ، وقد سل السيف ، ولو قدرت لم أقدح إلا بمرخ ، ولا سكنت بلداً غير الكرخ ، ولكن نضوى معقول ، فرحم الله لبيداً حيث يقول :

لما رأى لُبَدُ النسور تطايرت رفع القوادم كالفقير الأعْزَلِ

ورغّب أبو العلاء أحد أصحابه بالحج فراراً بنفسه من قلق المعرة وويلاتها فقال له : [٤] « والحجاز مكان معتزل لا يلحق به ما نحن فيه » .

كذلك عاش المعرى فترة فتنة بالمعرة فكان الروم يغيرون من أطراف الثغور على شمالى الشام ، وينتاشون المعرة فيما يناوشون حتى ذكر ياقوت أن

---

(١) رسائله بيروت ص ٢١ ، ١ اكسفورد ص ١٠ .
(٢) رسائله ط بيروت ص ٢٤ واكسفورد ص ١٠ .
(٣) رسائل اكسفورد ص ٤٧ .
(٤) رسائله ط اكسفورد ص ١٢٧ .

المعرة دخلها الفرنج بعد موت المعرى بسنين حتى أضطر نفر من أهل أبى العلاء للنزوح إلى (شيزز) القريبة من حماة [١] . وقد ذكر أبو العلاء فى شعره وصف هذه القلاقل والحروب فى الشام والعراق وأن الناس على قدم وساق فى هذه المفاتن . لايحلون حجزهم وقد شدوا عليها السلاح :

والشأم فيه وقود الحرب مشتعل يُشَبِّهُ القومُ شدَّت منهم الحُجُزُ
وبالعراق وميض يستهل دماً وراعد بلقاء الشر يرتجز [٢]

فإذا عرفنا الأرض والعهد . وحملهما المعرى على نقد المجتمع . تلقانا عامل آخر هو أشد لصوقاً بنزعته هذه ، وأكثر حملا عليها . فلقد أصابه العمى صغيراً فبعث فى نفسه هذا الليل المقيم على عينيه ثورة على الحياة . كان يعرف أن العمى مقيت ، لكنه هون عليه أن أخفى عنه الوجود . ومافى الحياة ما يؤسف على فقد النظر اليه . فكان يحمد الله على العمى كما يحمده غيره على البصر [٣] . وكأنه كان ينشد :

قالوا العمى منظر كريه قلت بفقدى لكم يهون
والله ما فى الوجود شىء تأسى على فقده العيون

على أن فى نفسه من العمى ألماً دفيناً ولو خادع الناس برضائه به واحتسابه . وواجه الحساد حين عظم قدره ، وطارصيته فلقى من عداوات حاسديه ضروباً . فسار فى طريق خلوده على شوك . وتالب الناس من حوله يثلبونه وينحتون أثلته ويتقولون على لسانه الأقاويل ، فأعرب عن ذلك بقوله :

حاول إهوانى قوم فما واجههم إلا بإهوان
تحرشونى بسعاياتهم فغيروا نية إخوانى
لو استطاعوا لوشوا بى إلى المريخ فى الشهب وكيوان [٤]

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ط البابى بمصر ج ٣ ص ١٢٠ .
(٢) اللزوميات ، محروسة ١٨٩١ (٣) معجم الأدباء ص ١٢٩ ج ٣
(٤) أوردها معجم الأدباء ونكت الهميان استشهاداً على اضطهاد القوم له ولم تدرج فيما رأيت من اللزوميات . وذكرها الراجكوتى فى فوات شعر أبى العلاء

كان الناس يهرونه ، كما قال الفرزدق عن جرير ، فوجدوه لهم قادحا . فهم الذين جعلوه عياباً يتسقط مزلاتهم ، ونقاراً ينقد أخلاقهم وعاداتهم .

وطمح بعزيمته إلى آفاق الأسفار وبغية فى رؤية دار السلام[1] فركب إليها العيس وخفق آباط الإبل حتى بلغها ، وكانت بغداد زمنه محجة العلم والأدب ، ودار العز والسؤدد . فخاب ظنه بها حين تنكر له نفر من علمائها ، وشرعوا بانتقاصه — كما يذكر فى نقده للمجتمع البغدادى — فحن فى بغداد إلى موطنه . ولا حنين الأم الرؤوم إلى وحيدها البعيد ، فإذا علم بلمع البرق تشوف ظامئاً إلى قطره من ماء المعرة ، وندم على ما فرط فى جنب بلاده يوم غادرها حتى تلقاه الحساد فى بغداد فقال يشرح حال سفره ، وضياع أمله .

أإخواننا بين الفرات وجلق ... يد الله لا أخبرتكم بمحالِ
أنبئكم أنى على العهد سالم ... ووجهى لما يُبتذلْ بسؤالِ
وأنى تيممت العراق لغيرما ... تيممه غيلانُ عند بِلالِ
فأصبحت محسوداً بفضلى وحده ... على بعد أنصارى وقلة مالِى
ندمت على أرض العواصم بعدما ... غدوتُ بهافى السَّوْم غيرمبالِ

ومابين الفرات وجلق إلا المعرة وحلب وغيرهما من ديار الشام . فهو يخبر إخوانه فيها بحفاظه على عزة نفسه ، وأنه لم يأت العراق متكسباً كالشاعر (غيلان ذى الرّمة) عندما قصد بلالَ بنَ أبى بردة الأشعرى بالعراق ، فمدحه مستمنحاً . فعاد أبو العلاء إلى المعرة مثقلا بالهموم وزاد فى فجيعته وأحزانه أن وجد أمه قد ماتت قبيل قدومه . كذلك عاد أبو العلاء إلى المعرة قانطاً من الدنيا وأهليها ، فقيراً منفضا . فلم يكن أسكن لقلبه ، وأشفى لداء بؤسه غير العزلة . فكتب رسالة يعالن بها سكان المعرة[2] عن رغبته بمعتزله الذى أنتواه منذ عهد بعيد .

---

(١) رسائله بيروت ص ٧٨ وأكسفورد ص ٣٢ .
(٢) رسائله بيروت ص ٨١ وأكسفورد ص ٣٤ .

بسبب كل ذلك خلد المعرى إلى العزلة بجسمه ، ولم يحبس روحه وعقله وإنما بقيا يطوفان به فى أرجاء الدنيا ، ويشرفان على العالم أجمع . فكأنه بات فى « كهف أفلاطون »[١] يعاين الخليقة ويعرضها على التنقير فيبين مثالبها ، ويكشف عن عيوبها وينقد المجتمع بمياسم كاوية . بل أحسبه إنساناً هاجمته صروف الزمان : فيها الفقر الذى اعترى البلد ، والعيش المروع والعمى المحزون واضطهاد الناس وتألبهم وخيبة أمل فى سفر ، وموت والدة رحيمة ، ومظلمة حكام وأمراء .

هاجمته هذه الفوائل والآفات كلها . فلجأ إلى معتزل . كما يلجأ الهارب من الأخطار . واتخذ محبسه جُنة وكنّا ، ثم جعله دريئة وحصنا ، ينضح الناس من كواه بنبال النقد ، ويرميهم من أسواره بالمساوىء والمثالب .

وإنى لأرى اعتزاله فراراً من الواجب . فإن باقعة مثله لا تجود به العصور إلا على ها مامتها ، جدير به وقمين ، أن يعيش فى بهرة الحياة الاجتماعية ، وأن يحيا فى صخب الناس ، يتمرس بآفات أدوائهم وينصب وسطهم ميزان نقده ، رافعاً عقيرته فى زجرهم وردعهم ، موجهاً نداءه لإرشادهم .

فلئن كان نقده للجماعة بغية إصلاحها ، فإصلاح المجتمع لا يتم بقصائد تنظم ، ورسائل تحبر ، وأسفار تؤلف . فما القول نافعا ، وما القلم مجدياً بغير أن يقوم العمل وينهض الفعل .

ج — طبيعة نقده للجماعة

يقول ابن خلدون[٢] : « والناقد البصير قسطاس نفسه » وابن خلدون نقادة اجتماعى وضع مبضع نقده على أدواء العصور فأصاب بقوله هذا

---

(١) جمهورية أفلاطون . الترجمة العربية طبعة المقتطف ١٩٢٩ ص ١٨٤ .

(٢) المقدمة : خطبة الكتاب .

الكبد من فن النقد . فالناقد عنده إنما يجعل نفسه ميزانا للنقد . وذلك شأن أبي العلاء . فنفسه هي قسطاس نقده وبهذا أمكن أن أقول : إن أسلوب المعري في نقد الجماعة يأخذ من (النقد الذاتي) بأكثر مما يأخذ من (النقد الموضوعي) .

كان نقده رهن محبس نفسه . كما كان جسده رهن محبس داره . نقم من الأغنياء لأنه عاين الفقر وألم حين عضه سفره ، وكابد قلة المال والإعسار في مقامه . ونقد الحكام والولاة ، إذ اصطلى بنارهم في ظلم الرعية واستباحة مالها ، وتركهم مصالحها ، وثلب المرأة ونظر في معائبها لأن في طبعه صدوفا عنها وفي طبعها عزوفاً عن مثله . وتناول الزواج فنقده ، وشرح قضاياه فهوّلها لرغبته عن الزواج وزهادته فيه . ونقد منذ كهولته من يذبح الحيوان ويأكله لأنه أبه لهذا عند شيب الذوائب وعند اعتناق مذهب أكل النبات . ولم يكن قبل رحلته لبغداد ينقد أكلة اللحوم وما نتج من الحيوان . ومن يدري ؟ فربما كانت الفراريج يومئذ أشهى ما يتحلب له شدقاه .

وعلى الرغم من أنه قال في رسائله إنه فكر في العزلة قبل الاعتزال بسنين طويلة فإن رحلة بغداد قد أحدثت في نفسه إنقلاباً فبدلت من طبعه وشعوره فكثر بعدها تشاؤمه وقل تفاؤله . ولقد كان قبل هذه الرحلة على شيء من النقمة على الحياة والنقد للجماعة . فداليتاه ولا ميتاه في « سقط الزند » مليئات بالعبرات وبالشكّات ، ومر النقدات .

ولكن حين نظم المعري لزومياته نسجها حلة نقد خلعها على منكب المجتمع لباسا لا ينضوه أحد سجيس الليالي . لأن طبائع الناس وأخلاقهم ، وصفاتهم وسجاياهم ، ما زالت كما هي منذ كانت الدنيا . ومن هاهنا يخلد المعري . فتظل خطرات نقده لجماعة عصره صادقة على من جاء بعده من الجماعات .

ولتحديد نقده للمجتمع ينبغى أن نتعرف إلى كل مظاهر الحياة فى المعايش ، والعادات والمرافق والصلات مما جعله أبو العلاء ميداناً لنقده الاجتماعى ، ومنبسطا لآرائه فى الناس .

د — منابع نقده
للمرأة والنسل والزواج

لقد ارتاب (مارجوليوث) المستشرق الانكليزى بما يذكر المترجمون لأبى العلاء من أنه لما اجتاز باللاذقية فى شبابه نزل فى دير كان فيه راهب له علم بأقوال الفلاسفة وآرائهم ، فتلقف أبو العلاء تعاليمه فأحدثت هذه التعاليم فى نفسه معتقدات وشكوكا[١] .

وعلام يرتاب (مارجوليوث) بلا حجة . ومصداق تلقّى المعرى لتلك الأقاويل الفلسفية وانطباعها فى صفحة ذهنه — التى كانت لا تزال بيضاء دون آثار الثقافة التى ثقفها فيما بعد — مانجده فى شعره وأفعاله من آثار الفلسفة اليونانية وما شاع زمنه من المعتقدات الفارسية والآراء الهندية .

لم يرتجل أبو العلاء آراءه ارتجالا فى الفلسفة والحياة والمرأة والزواج والنسل وتحريم أكل اللحم وطرح الشهوات واتخاذ الزهد خلة ، وإنما صدر بها عن منابع موجودة فى الأفكار العتيقة الرومية والعجمية .

وأستطيع أن أقسم لقاح أفكاره ونزعاته فى ذلك على الشكل الآتى :

١) أفكاره التى وصفت بيونانيتها .

٢) أفكاره التى بدت بفارسيتها .

٣) أفكاره التى اتصلت بهنديتها .

من اليونان فيلسوفان مشهوران عرفهما العرب . وذكرهما الشهرستانى فى كتابه (الملل والنحل) أحدهما (ديوجينيس الكلبى) والثانى (فيثاغورس)

---

(١) مقدمة مرجوليوث استاذ العربية فى جامعة اكسفورد لرسائل ابى العلاء ص ١٧

أما الأول فكان مذهبه الزهد والتقشف والقناعة بشظف العيش . كان يقول بالتزين الروحى وعنده[١] أن « عمارة الذهن بالحكمة ، وجلاء العقل بالأدب وقمع الشهوة بالعفاف ، وردع الغضب بالحلم ، وإماتة الحسد بالزهد ، ورياضة النفس حتى تصير مطية قد ارتاضت حيث صرفها فارسها فى طلب العليات وهجر الدنيات » .

وهى صفات حرص المعرى على الاتصاف بها منذ عزلته . وكانت فى نيته قبل ذلك كما يذكر فى رسالة اعتزاله[٢] .

مضى المعرى — وفق فلسفة ديوجين الأخلاقية — فعمر ذهنه بالحكمة فنظم اللزوميات وهى مسرح للحكمة ومحشر للعظات . وجلا عقله بالأدب فألف كتباً وصل إلينا بعضها فوجدناه جلاء للأفكار فى أرفع أدب وأجل بيان . وترك الشهوات فآثر البعد عن المرأة . واتخذ العفاف وقاء . وعاش بقية عمره زاهداً مقتول الحسد . وقد أكمل رياضة نفسه فصرفها حيث صرفها وكان هاجراً للدنيات .

وبدت فى حياته وأقواله نزعات (فيثاغورس) فكان يكثر من ذكر الروح وصفائها وانطلاقها وكدر البدن وأخلاطه ، ويشوق النفوس إلى دنيا أصفى من هذه الدنيا وأعلى .

وأكاد أجد فلسفة المتقشفين مثل (مارك أوريل) و (إبيكتيت) مبثوثة خلال اللزوميات جميعها ما خلت منها صفحة من تلك الصفحات .

أما أثر العقيدة الفارسية فى أفكار أبى العلاء فقد ظهرت جلية فى كرهه الزواج وبعده عن ذبح الحيوان لئلا يألم ، فإن أصحاب (ديصان) الذين تسموا بالديصانية وهم فريق من مجوس الفرس القائلين بالمثنوية فى مذهب النور

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى طبع لندن ١٨٦٢ وقف عليه وليام كويتون أمين المخطوطات فى المتحف البريطانى ، المطبوعات الشرقية — ص ٣٣٢

(٢) سيأتى ذكرها فى ص (٥٥) من هذا الكتاب .

والظلمة ، والخير والشر قد[١] « حكى عنهم محمد بن شنب أنهم يرون المناكحة حراماً ويحترزون عن ذبح الحيوان لما فيه من الألم »

وهذه آراء أبي العلاء . فقد نقد الزواج وذمه وقال بعدمه فكأنه حرمه وجرى مذهبه فى عدم ذبح الحيوان لئلا يألم . ودافع عن رأيه هذا فى رسائله إلى داعى الدعاة الفاطمى فقال[٢] :

« ولم يزل من ينتسب إلى الدين يرغب فى هجران اللحوم ، لأنها لا يوصل إليها إلا بإيلام الحيوان » . وأكثر من هذه الرأفة بالحيوان فى لزومياته .

وكان مذهبه فى ذلك يمت إلى مذهب فئة مجوسية أيضاً ظهرت أيام المأمون وكان فيها معشر يسمون بالمصلين[٣] « قالوا إذا اجتهد الرجل فى العبادة وترك التغذى باللحم ورفض الشهوات النفسانية الحيوانية يصفى جوهره » .

وكذلك فعل أبو العلاء فقد اعتزل الناس متوفراً على العبادة فألف الفصول والغايات فى ذكر الله والمواعظ وترك التغذى باللحم والدسم فآثر العدس والتين فقال :

يقنعنى بلمس يمارس لى وإن تسكن حلاوة فبلس

وصد عن الشهوات النفسانية الحيوانية ، وكان يصبو إلى جوهره المصفى وهو روحه فيكثر مخاطبتها والبحث فيها ، ويرتقب مفارقتها لجسمه لتعود كما كانت قبل أن تحل فيه :

الجسم والروح من قبل التقائهما كانا وديعين لا همّا ولا سقما
تفرد الشيء خير من تألفه بغيره وتجر الإلفة النقما

وكانت (العيسوية) وهى فئة منسوبة إلى أبى عيسى اسحاق بن يعقوب

---

(١) الملل والنحل ص ١٩٦

(٢) رسائله إلى ، الداعى الفاطمى ط. السلفية بمصر ١٣٤٩ ص ١١

(٣) الملل والنحل ص ١٧٥

الأصفهانى الذى خرج على المنصور بالرّى فقتله المنصور تحرم أكل الحيوان جميعه ، وكان مذهبها [١] « أن حرمت الذبائح كلها ونهت عن أكل ذى روح على الإطلاق طيراً كان أو بهيمة »

أما أثر الآراء الهندية فى مذهب أبى العلاء فى النساء والنسل والشهوات الجسمانية فقد دل عليه أتباع (قلانوس) الذى كان تلميـــذاً لفيثاغورس الفيلسوف اليونانى فجاء الهند ونشر فيها مذهبه فى التقشف والبعد عن الشهوات حتى أيام الاسكندر فى فتحه المشرق ، وقد كانوا يزعمون [٢] « أن لا خير فى اتخاذ النساء والرغبة فى النسل ولا فى شىء من الشهوات الجسدانية »

فها هنا تُلقى عصا التحقيق فى المنابع التى صدرت عنها نزعات المعرى فى نقد المرأة والنسل والزواج . وهى قوام المجتمع . وغير ذلك من نزعاته التى أظهرها لبنى عصره ولمن يأتى بعده . فأجد أن أبا العلاء لم يكن مبتكراً لتلك الأفكار وإنما تبناها تبنياً ، وأكثر من اعتناقها حتى عُرف وحده بها ونسبت فى العربية اليه . وقد يتسامح علماء تاريخ الأدب فى نسبة مذهب إلى مَن أكثر الادعاء له وشرَحه وألف فيه . وإن يك لهذا المذهب نسب معروف فى الأفكار العتيقة كمذهب الرومانتيك فى الأدب الفرنسى فإن (فيكتور هوغو) كان حامل أعلامه فى القرن التاسع عشر معروفا بابتكاره له واعتناقه إياه مع أن أسباب هذا المذهب راسخة فى الأدب الرومانى العتيق من أيام الشاعر (كاتولوس) وكانت (مدام دوستال) و (شاتوبريان) ينزعان هذه النزعة الإبداعية قبل فيكتور هوغو ولم تنسب إليهما .

وكذلك يخفى فى التـاريخ أو يهمل ذكر أولئك الأقدمين من فلاسفة اليونان وأصحـاب النحل الفـارسية والآراء الهندية فيما قالوا وتجادلوا حول

---

(١) الملل والنحل ص ٤٥٧ ، ٤٥٨

(٢) الملل والنحل ص ٤٥٧ ، ٤٥٨

المرأة والزواج والنسل وما إلى ذلك من ترك أكل اللحم واعتناق التقشف ، ويبقى أبو العلاء المعرى هو المعروف فى تاريخ الأدب العربى بمبدع هذه الآراء وصاحب تلك النقدات والنزعات .

وهيهات ، فإنه تلقاها عن غيره ووعاها ، ثم اعتنقها وادعاها . وبهذا أعود إلى (مارجوليوث) فلا أنكر مثله على أبى العلاء تلقيه أقاويل الفلاسفة من راهب فى دير حين نزل به فى اللاذقية